النضال النقابى والسياسى للطبقة العاملة

والحقيقة أن أهمية حركة الطبقة العاملة فى ذلك الحين تكمن فى أنها كانت معلما للشعب كله، وملهما لعديد من الفئات الأخرى التى رأت الطبقات الأخرى وهى تتهاوى تحت ضربات الاحتلال..

وطوال السنوات العشر الممتدة من ١٩٠٩ حتى ١٩١٩ كان الكثير من الأصوات قد تلاشى، وكان الصوت الأعلى هو صوت الإضرابات العمالية والاعتصامات ومظاهرات العمال العاطلين التى أثرت فى كثير من المثقفين ولفتت انتباههم نحو فكر جديد وطبقة جديدة لم تستسلم ولم تهادن ولم تهرب من ميدان الكفاح.

من هذه الزاوية يتعين تقييم دور الحركة العمالية فى ذلك الحين.. ومن هذه الزاوية يتعين دراستها..

ولسنا نستطيع أن نقدم دراسة وافية عن هذا الموضوع، لكننا سنكتفى بخلاصة سريعة[١].

والحقيقة أن الطبقة العاملة كانت تعانى من ظروف غاية فى القسوة. فالأجور منخفضة إلى حد لا يصدق.. كان أجر العامل غير الفنى بالمحالج ثلاثة قروش يوميا، وأجر عامل

الترام ٨ قروش يوميا.. هذا مقابل ساعات عمل يومية تبلغ ١٣ ساعة فى مجال النقل و١٧ ساعة فى محالج القطن و١٦٦ ساعة فى المطابع [٢].

ذلك فى الوقت الذى ارتفعت فيه الأسعار ارتفاعا فاحشا، فقد ارتفع ثمن نصف كيلو اللحم من قرشين إلى أربعة قروش، وارتفع سعر أردب القمح من ١٤٥ قرشا إلى ١٥٠ قرشا بالإسكندرية وبلغ ٢٤٠ قرشا بالأرياف، وارتفع سعر الفول من ١٢٥ قرشا إلى ١٤٠ قرشا.

كما ارتفعت أجور المنازل بنسبة ١ : ٩.. وهكذا[٣].

وحاول العمال أن يلفتوا أنظار الرأى العام إلى قضيتهم، وأمطروا الجرائد برسائل تشرح حالتهم وبؤسهم. وكتب أحد عمال السكة الحديد إلى جريدة الأهرام يقول:

«إن أعمال مصلحة السكة الحديد صعبة جدا وخطرة للغاية، وعمالها جميعا محفوفون بالأخطار، والوردية تمكث ١٢ ساعة متوالية.. وإذا مرض أحدهم لا يجد طبيبا ولا دواء حتى يموت»[٤].

وعامل آخر من شركة الترام يبعث برسالة فى الأهرام بتوقيع ن. ف. محب للإنسانية، تقول:

«إن شركة ترام القاهرة تشغل عمالها أكثر من ١٤ ساعة فى اليوم وتنقده مرتبا ثنين جنيه فى الشهر، وإذا مرض يوما من شدة التعب والسهر والقيام المبكر تخصم منه أيام الانقطاع وتأمر بإيقافه ورفته لأسباب واهية.. إن شركة مثل هذه لا تسرق أوراقا ولا تختلس مليما واحدا، ولكنها تسرق أرواح العمال وتتسبب فى قصف حياتهم.. إن العمال كثيرا ما قدموا شكاواهم ولا حياة لمن تنادى، فلا الشركة تجيب ولا الحكومة تصغى.. ولو كان لهؤلاء العمال وأمثالهم بمصر جمعيات أو أحزاب لما كانت الشركة تعاملهم هذه المعاملة السيئة، ولخشيت من بأسهم»[٥].

ولعل هذه الرسالة توضح- إلى حد ما - وعيا طبقيا وفهما لأهمية التنظيم النقابى والسياسى فى تقوية نضال العمال ودعم حركتهم.. والحقيقة أن الطبقة العاملة قد بادرت منذ مطلع القرن إلى تكوين سلسلة من النقابات والجمعيات لتوحد صفوفها..

وفى سرعة غريبة تكونت عشرات النقابات والجمعيات.. نقابة عمال السجاير ١٨٩٩، اتحاد عمال الخياطين ١٩٠١، نقابة الحلاقين ١٩٠١، جمعية عمال المطابع ١٩٠١، جمعية

عمال الأدوات المعدنية ١٩٠٢، جمعية كتبة المحامين ١٩٠٢، وفيما بعد تشكلت نقابة عمال الصنائع اليدوية ونقابة عمال الترام ونقابة عمال السكة الحديد[٦].

بل إن الأمر قد وصل إلى حد تكوين جمعيات سرية عمالية مثل «الجمعية السرية لبؤساء السكة الحديد».. وقد تصدت هذه الجمعية لقيادة عدة إضرابات واعتصامات ضد تعسف الإدارة.

وفى ١٣ أغسطس ١٩٠٨ عندما أصدرت مصلحة السكة الحديد منشورها رقم ٤٥٧ الذى يقضى بالعمل يوميا لمدة ١٢ ساعة متواصلة يعقبها ١٢ ساعة راحة[٧]، تقدمت هذه الجمعية على الفور لقيادة العمال وإذا بتلغرافات ذات صياغة موحدة تنهال على الإدارة والصحف.. تقول:

«منشور الإدارة نمرة ٤٥٧ صارم وغير مستطاع.. نرجو تقليل ساعات العمل وتحسين رواتبنا، ولا نهدأ حتى ننال مطالبنا..».

وتشكلت قيادة سرية الإضراب وحددت قائمة بالمطالب التى يناضل العمال من أجلها.. ومن بينها:

١- ٨ ساعات عمل بدلا من ١٢ ساعة عمل (وهى أول مرة يرفع فيها شعار ٨ ساعات عمل).

٢- يوم راحة فى الأسبوع.

٣- تحسين الماهيات والرواتب بقدر صعوبة الأعمال.

٤- الامتياز فى المعاش بحسب صعوبة وخطر الأعمال.

٥- ترقية العمال بحسب الأقدمية.. وليس بالخواطر.

وفى منتصف شهر أكتوبر، عندما حاولت المصلحة الانتقاص من حقوقهم مرة أخرى، قرر العمال الإضراب يوم ١٨ أكتوبر مطالبين بالمطالب السابقة.

وأمام وحدة العمال وتنظيمهم.. تراجعت الإدارة ومنحت العمال بعض ما يطلبون.

وفى نفس الوقت كان عمال الترام يعدون العدة لإضراب كبير حددوا له أيضا يوم ١٨ أكتوبر.. وهذا التحديد ذو دلالة واضحة، فهو يعنى تفهم العمال لأهمية وحدتهم النضالية، وهو يوحى بجنين فكرة الإضراب العام.

ومنذ يوم ٤ أكتوبر صاغت لجنة عمال الترام مطالبها ووزعتها على الصحف[٨].

وتتلخص فى «خفض ساعات العمل إلى ثمانى ساعات فى اليوم بدلاً من ١٢ ساعة، زيادة المرتبات بنسبة ٤٠٪ مع زيادتها مرة كل عام، ومنح العمال إجازة فى حالة المرض وإجازات اعتيادية سنوية، وإعادة العمال المفصولين إلى العمل، وتأليف لجنة للتحقيق فى شكاوى العمال على أن يمثل فيها العمال».

وقام العمال بإخطار الشركة ومحافظة القاهرة بمطالبهم، معلنين عزمهم على الإضراب إن لم تجب مطالبهم، محددين يوم ١٨ أكتوبر موعدا لإضرابهم.. وإذا كان البوليس قد تمكن من تصفية الإضراب بالعنف وباعتقال ٧٢ من قادة العمال، فإن عمال الترام قد حققوا مطالبهم.. وقد لفتوا الأنظار إلى مطالب العمال.

والحقيقة أن العمال قد خاضوا قبل ذلك سلسلة من الإضرابات والاعتصامات.. ففى عام ١٩٠٠ أضرب العمال الإيطاليون بخزان أسوان، وفى نوفمبر ١٩٠١ أضرب عمال الترزية «فقد اجتمع العمال فى قهرة ألف ليلة وليلة بالأزبكية وكانوا قد أعدوا لهم علما خاصا، فأقسموا أمامه يمين الطاعة، وقرروا الإضراب عن العمل حتى يجابوا على طلبهم، وهو تعيين أجر على كل قطعة. وساروا فى مظاهرة يهتفون بحياة العدل وسقوط الظلم. فقبض رجال الشرطة على ٢٧ عاملا، وزجوا بهم فى السجن، وأخيرا أجيب العمال إلى طلبهم، وانتهى الاعتصام»[٩].

وفى أوائل ديسمبر ١٩٠١ أضرب عمال مصانع السجاير، وساروا فى مظاهرة عظيمة بجهة باب الحديد، ثم تجمعوا بعد ذلك فى شارع نوبار، فأرسلت المحافظة ثلاثين خيَّالا لمطاردتهم وتفريق جموعهم فدارت معركة أصيب فيها كثيرون بجروح بليغة ولم يحقق هذا الاعتصام نتيجة، لأن مصانع السجاير فصلت العمال المشاغبين»[١٠].

«وفى يناير ١٩٠٢ أضرب الحلاقون الذين يعملون عند أصحاب محلات الحلاقة، مطالبين بتخفيض ساعات العمل، وإعطائهم إجازة نصف يوم الأحد. واجتمع سبعون منهم فى شارع المهدى بالأزبكية، ومروا على محلات الحلاقة فى بعض الأحياء لتحريض عمالها على التضامن معهم، أما أصحاب محلات الحلاقة فقد رفضوا أن يجيبوا العمال إلى طلبهم بحجة أنهم يتكبدون خسائر، وبذلك انتهى الاعتصام إلى غير نتيجة»[١١].

وفى يناير ١٩٠٢ أضرب عمال شركة الغزل الأهلية بالإسكندرية. وفى مارس ١٩٠٢ أضرب عمال مطبعة الكوربيرى أجسيانو بالقاهرة.. وفى نفس الشهر أضرب عمال السجاير بالإسكندرية[١٢].

وفى أبريل ١٩٠٧ أضرب عمال الفحم فى ميناء بورسعيد وتضامن معهم عمال ورش قناة السويس وعمال النظافة..

ومرة أخرى يعود عمال السكة الحديد إلى التمرد، وتنشر اللواء خبرا يقول «اعتصام هايل فى عنابر السكة الحديد فى العاصمة».

وقد حدد العمال مطالبهم بعزل المستر بكيت وكيل المهندس المشرف على العنابر والذى كان يعطيهم الأعمال بالمقاولة بعد أن كانوا يشتغلون باليومية وطالبوا أيضا بزيادة رواتبهم كل ثلاثة أعوام وتأليف لجنة للنظر فى شكاوى العمال تضم ثلاثة منهم..

وفى صباح يوم الإضراب وضع العمال بيانات على جدران الورش تحدد مطالبهم وشعارات تقول «لا نريد بكيت» «لا نريد بكيت لأنه يظلمنا»..

وبدأ العمال أولى الخطوات الإيجابية بمنع القطارات من مغادرة العنابر وبقطع خطوط السكة الحديد.. لكن البوليس تدخل بوحشية لينهى الإضراب فى يومه الأول..

وفى أكتوبر ١٩٠٨ أضرب عمال الترام، وجلسوا على الخطوط فى مخزن شبرا والعباسية والجيزة، وكانت مطالبهم تنحصر فى أن تكون مدة العمل ٨ ساعات بدلا من ١٣ ساعة، وزيادة المرتبات، وحقهم فى الإجازات الاعتيادية والمرضية.. وعدم جواز فصل العامل إلا بناء على أسباب معقولة، وأن يعفى العمال من دفع ثمن البدل والأحزمة والشنط والنمر النحاسية التى تصرفها لهم الشركة. وقد استعانت الشركة برجال البوليس الذين انهالوا على العمال المضربين بالعصى والكرابيج حتى أجلوهم بعيدا عن الخطوط ومن ثم خرجت عربات الترام يقودها سائقون كانوا يعملون بالشركة من قبل ثم فصلوا.. ولكن البوليس لم يستطع التغلب على المضربين فى مخزن الجيزة لما أبدوه من مقاومة عنيفة، وفى اليوم التالى توجه إليهم حكمدار العاصمة على رأس قوة ضخمة من رجال البوليس وعربات الإطفاء وأوسعوا العمال ضربا ثم قبضوا على ثمانين منهم.. وبهذا انتهى الإضراب[١٣].

وفى أكتوبر ١٩١٠ وعندما أضربت عنابر السكة الحديد يكتب صادق عنبر فى جريدة اللواء قائلا: «إن الاعتصام هو خير درس لحكامنا، يوقفهم على تطور فكر المصرى، ويظهره لهم بثوبه الجديد، ثوب العليم بمصلحته الحريص عليها، المتفانى فى المطالبة بها. وبتعبير آخر: إننا قد رأينا اليوم مظهرا من مظاهر الاشتراكية، لا يبعد أن يصير هلاله على توالى الأيام بدرا كاملا»[١٤].

ولعلها المرة الأولى التى تشهد فيها الصحف المصرية هذا الربط الذكى والواعى بين الإضراب.. والمطالب العمالية والاشتراكية. ولعلها أيضا تكتسب دلالة مهمة، تلك الأمنية التى نشرتها جريدة اللواء.. بأن يصير «هلال» الاشتراكية «بدرا كاملا»..

بل إن مجلة محافظة وهى «الجريدة» كتبت هى الأخرى تقول «تسرى عدوى الأفكار كما تسرى عدوى العلل والأدواء، من فرد لفرد، ومن بلد إلى بلد، ويكون لها من النتائج فى كل بقدر ما تجد من الاستعداد فى نفوس الناس.. وإذا فكرنا فى اعتصام عمال الترامواى فى العاصمة ثم قيام زملائهم اليوم بالإسكندرية بإعلان اعتصام جديد، حكمنا، مع الاعتقاد التام، بأن ما يجرى هو نفحة من تلك الرياح الاشتراكية التى تجوب المعمورة بلدا بلدا»[١٥].

ويكون مقال «الجريدة» تعبيرا عن الفزع من وصول الموجة الإضرابية إلى ذروتها فى عام ١٩١١ بأضخم إضراب شهدته البلاد وهو إضراب عمال الترام الذى بدأ فى ٣٠ يوليو ١٩١١ والذى نفذه ٤٠٠٠ عامل وموظف، وردا على هذه الوحدة الإجماعية أصدرت الشركة بيانا تطالب فيه العمال بالعودة للعمل خلال ٢٤ ساعة وإلا اعتبروا مفصولين وستعين الشركة بدلا منهم عمالا جددا، وقرأ زعماء الإضراب المنشور على العمال المضربين، فقرر الجميع رفضه والاستمرار فى الإضراب، ورابط العمال فى مجموعات عند مخازن عربات الترام ليمنعوا الشركة من تسييرها.

ويتميز هذا الإضراب بعدة ظواهر مهمة:

أولا: التنظيم الدقيق.

ثانيا: الوحدة الشاملة بين العمال..

ثالثا: وهذا هو المهم.. اهتمام قيادة الإضراب اهتمام واعيا بكسب تأييد ومساندة الرأى العام.

وهكذا نظم العمال المضربون عددا من المظاهرات فى باب الحديد وبولاق والجيزة والعباسية وكانوا يحملون لافتات تقول «إن العمال المعتصمين يطلبون من الجمهور عد يد المساعد إليهم» كذلك كانوا يحملون صناديق لجمع تبرعات من المواطنين..

ويواصل العمال إضرابهم أياما عديدة كانت الشركة تخسر فى كل يوم منها ١٢٠٠ جنيه[١٦]. وفى اليوم الخامس أرادت الشركة أن تسير إحدى قطاراتها بالقوة تحت حماية البوليس واصطدم بها العمال وحدثت مصادمة عنيفة اشتركت فيها الجماهير التى تقدمت

لتحمى العمال المضربين من تعسف البوليس وإذا ما نجحت الشركة تحت حماية حراب البوليس أن تسير إحدى عرباتها على خط العباسية فى طريقها إلى العتبة وبينما خيل للجميع أن الإضراب قد فشل إذا بالجماهير تتقدم مرة أخرى لتساعد العمال المضربين «وخرج أهالى حى الحسينية وأوقفوا العربة وضربوا ركابها وأشعلوا فيها النار ولم يلبث هذا الأسلوب أن انتشر فى جميع الأحياء الشعبية كلما حاولت الشركة تشغيل أحد خطوطها وخاصة فى حى بولاق والعباسية وهكذا عجزت الشركة والبوليس عن تسيير الخطوط بفضل تأييد الشعب للعمال»[١٧].

والحقيقة أن صدام العباسية هذا.. أو كما أسمته الصحف مذبحة العباسية، قد أثار مشاعر الجماهير، وأن بسالة العمال قد ألهمت الكثيرين الشجاعة وتقدم الكثيرون لإدانة الحكومة والبوليس وارتفع أكثر من صوت دفاعا عن حقوق العمال..

وتكتب اللواء قائلة «أحدث البوليس مجزرة فى العمال، وداس الشعب فى ساحات المدينة بسنابك خيله، وأوسعه ضربا وإغراقا بالدماء وعامل الجمهور معاملة السيد لعبيده، وداس القوانين فلا نعلم لمَ نكست نحن ونقف عند الحدود التى لا تقف عندها الحكومة والبوليس والشركات؟. هم يدوسون النظام وينتهكون حرمة القوانين ويعاملون الشعب معاملة العبيد فلا نعلم نحن لماذا لاندوس - ولو مرة وعلى الورق - على ذلك الظلم الفاضح والهمجية، ولذلك نقول للعمال: إنهم يخيفونكم ويرهبونكم ويريدون التهويل عليكم لظنهم أنكم من غير طينة العمال فى أوروبا وأنهم إذا عاملوكم بالشدة جبنتم وخضعتم، وتستمر الشركة فى حلب البقرة الحلوب والبوليس يمسك رأسها تسهيلا لحلبها، ولكن فاعلموا أن الاعتصام حق من حقوقكم الطبيعية وإذا أردتم الاستمرار فيه فما من قوة قادرة على التأثير عليكم. إن قضيتكم ليست قضية عمال الترام فقط بل هى قضية جميع العمال فى مصر.. وقد جاءت حادثتكم بعد حادثة عمال السكة الحديد دليلا على أنه أصبح فى مصر قوة لا يستهان بها وهى يقظة العمال فى البلاد الشرقية وتنبههم إلى مصالحهم وحقوقهم ورغبتهم فى أن يكونوا بشرا كسائر البشر»[١٨].

ويواصل الشعب فى كل مكان تأييده للعمال المضربين وتنهال برقيات الاحتجاج على الصحف:

برقية من أهالى دمنهور تقول: «العدل يندب حظه وملاك الرحمة ينتحر على ربوة الأهرام من إجراءات البوليس إزاء عمال الترام»..

وبرقية من طنطا تقول: «نطلب من ناظر الداخلية أن يعين بوليسا جديدا لمراقبة البوليس فى أعماله، قد أصبح الناس فى مصر بحاجة إلى الحماية.. وإلا اضطروا للدفاع عن أنفسهم».

وبرقية أخرى بتوقيع فلاح تقول.. «إن الشعب أصبح يكره البوليس لهذه الأفاعيل بعد أن كان يظن أن البوليس حماية له».

وقد وجه العمال المضربون نداء إلى عمال المرافق العامة لمساندتهم فى إضرابهم والإضراب تضامنا معهم.. وفى ٦ أغسطس أعلن عمال ترام الإسكندرية إضرابهم التضامنى..

وعندما انتشرت موجة البطالة بين العمال عامى ١٩١٤ و١٩١٥ كانت مظاهراتهم العاصفة تهز القاهرة والإسكندرية.

وفى يوم ٣١ أغسطس ١٩١٤ تجمهر بالإسكندرية ١٥٠٠ من العمال العاطلين يطلبون «قوتا أو عملا».. وفى يوم ٣ سبتمبر ١٩١٤ اجتاحت القاهرة موجة عارمة من مظاهرات العمال العاطلين الذين ساندتهم جماهير الشعب أو كما اسمتهم بيانات الحكومة «بالرعاع».. وتصدى البوليس لهم وقبض على ١٥٠ شخصا..

والذى يوضح انتشار هذه الموجة من الإضرابات أن النيابة قسمت المتهمين إلى ثلاث قضايا.. قضية مظاهرة الدرب الأحمر والخليفة، وقضية مظاهرة بولاق وقضية مظاهرة الجمالية وباب الشعرية[١٩].

بل إن العمال لم يكتفوا بذلك فقد حاولوا أن يؤسسوا حزبا لهم..

وفى ١٢ يوليو ١٩٠٨ نشرت كل من الأهرام واللواء بيانا عن دعوة عامة يوجهها «حزب المقاصد المشتركة للعمال» ويقول البيان «إن محمد أحمد الحسن أحد مؤسسى الحزب قد قرر إلقاء خطبة عمومية فى حديقة الأزبكية موضوعها وجوب انضمام أصحاب الحرف المصرية والأجنبية على اختلاف طبقاتهم إلى حزب مشترك المنافع.. ليتكون منه جماعة قوية مسموعة الرأى والصوت فى الأعمال النافعة.. وإقامة جريدة يومية «الوضاح» لسان حال للحزب»..

ولعلها لم تكن المحاولة الأولى لتأسيس حزب اشتراكى..

ففى مارس ١٩٠٨ نشرت جريدة الإقدام تحت عنوان «حزب الاشتراكيين» تقول: «علمنا

أنه قد تأسس هذا الحزب برئاسة الدكتور شبلى شميل، وعضوية كل من الدكتور شدودى، وسامى أفندى جريدينى وتوفيق حبيب، ونجيب أفندى أبكاريوس، وغرضه كبح جماح الغنى العاتى ليكف عن دوس الفقير بقدميه»[٢٠].

وإذا كانت محاولة المثقفين الشوام هذه لم يكتب لها الاستمرار، فإن محاولة العمال المصريين قد وجدت فيما يبدو سبيلا للاستمرار ولو لبعض الوقت.. وعبَّرت عن نفسها وعن وجودها بشكل أو بآخر.

فعندما صدر قانون المطبوعات فى ١٩٠٩ نشرت الأهرام بيانا صادرا عن هذا الحزب يقول «بالنيابة عن حوالى خمسين ألفا من العمال نحتج إلى ظهور قانون المطبوعات القاتل للحرية ونطلب إلغاءه ولسوف يحتج العمال احتجاجا فعليا إذا لم تتدارك الحكومة الأمر وتحترم صوت الشعب»[٢١].

وفى ١٦ يوليو ١٩٠٩ نقرأ فى الأهرام بيانا عن محاولة جديدة لتأسيس حزب للعمال والبيان بتوقيع محمود أبو عثمان ويقول «كلنا يعلم مركز العمال فى أوروبا، فالعامل هناك لا فرق بينه وبين القاضى والمحامى. ولما كان الإنسان من فطرته الطبيعية ميالا إلى الارتقاء قام جماعة من خيار عمال المصريين الذين يقدرون الأشياء وأسسوا حزبا باسمهم ليربط كلمتهم..».

ويقول البيان «إن الجلسة الأولى انعقدت وحضرها جمع غفير من العمال والوجهاء وإن الحزب انتخب السيد أفندى على مديرا له، والسيد محمد أحمد الحسن رئيسا..» (وهو مؤسس الحزب الأول).

والحقيقة أن صحف هذه الفترة لا تحمل لنا أخبارا ذات قيمة عن هاتين المحاولتين لتأسيس حزب عمالى..

لكن ثمة مسألة مهمة يتعين الإشارة إليها.. هى أن السيد أفندى على مدير الحزب قد ظهر اسمه من جديد عام ١٩٢٠ كصاحب لمجلة «النظام» وهى مجلة ذات ميول يسارية وإن كانت تميل إلى الوفد، وثمة مسألة مهمة أخرى هى أن أحد محررى مجلة «النظام» هذه هو رفيق جبور. وسوف تشهد فصولا قادمة من هذه الدراسة دور رفيق جبور كواحد من قادة الحزب الشيوعى وكرئيس لتحرير مجلة الحساب التى أصدرها الحزب عام ١٩٢٥.

وهنا يتعين علينا أن نسأل أنفسنا هل يمكن أن نربط بين محاولة السيد أفندى على لتأسيس حزب عمالى عام ١٩٠٩ وبين علاقاته باليسار وبرفيق جبور على وجه التحديد.

ولسنا نستطيع أن نقدم إجابة دقيقة لكننا نطرح السؤال كواحد من الاحتمالات التى يتعين البحث الدقيق عن إجابات واضحة لها..

كذلك أدرك العمال أهمية الصحافة كسلاح فى معركة الدفاع عن مصالحهم الطبقية وفى عام ١٩٠٨ صدرت «الوضاح» جريدة حزب العمال.. وفى نفس السنة صدرت مجلة عمال السكة الحديد وفى عام ١٩١٢ صدرت فى طنطا مجلة «التعاون» معلنة أنها تبحث وراء منفعة العامل..»[٢٢].

والحقيقة أن الطبقة العاملة كانت بسعيها المتواصل ونضالها المستمر تقدم نموذجا فريدا فى مجتمع شهد عديدا من الطبقات تمر من ميدان المعركة ضد الاحتلال، وعديدا من الأحزاب تنشأ ثم تنهار. وخلال السنوات المظلمة التى تلت إعلان الحماية وطوال الفترة التى نجح فيها الاحتلال فى تكميم كل الأفواه.. كان ثمة صوت يرتفع أقوى وأقوى هو صوت الطبقة العاملة.. التى استطاعت أيضا أن تلهم كثيرا من المثقفين الثوريين الشجاعة والقدرة على التطلع نحو فلسفة جديدة ونظرية جديدة للعمل الثورى والوطنى..

إن نضال الطبقة العاملة الجاد والمتواصل والذى اتسم بصبغة طبقية واضحة كان نموذجا جديدا استطاع أن يقدم البديل عن التهاون والقرار وحالة التمزق والضياع التى عانى منها كثير من المثقفين.

ومع ارتفاع رايات النضال العمالى ارتفعت جنبا إلى جنب صيحات عديد من المثقفين الثوريين معلنة فى دوى كلمة الاشتراكية..

وهذه هى القيمة الأساسية للنضال العمالى فى هذه الفترة، لقد كان مدرسة حقيقية لجيل من المثقفين.

ولعل هذه الحقيقة هى التى أزعجت الرجعية المصرية من الإضرابات العمالية ففى عام ١٩٠٢ تهاجم مجلة «الجريدة» – لسان حال حزب الأمة– فكرة الإضراب وتصفها بأنها «داء جديد جلبه الغرب إلى الشرق، وهذا هو مبدأ الفوضى وأول مراتبها»..

وفى نفس العام تقول الأهرام عن العمال المصريين المضربين «إنهم يقلدون العمال الأوروبيين تقليد القردة ولكنه تقليد فاسد ومضر بهم..»

وفى عام ١٩٠٨ وعقب إضراب عمال الترام تهاجم «المقطم» –لسان حال الاحتلال– الحكومة على تهاونها إزاء هذه الطبقة قائلة:

«إنه إغفال شديد لا يقبل فيه عذر لمعتذر، ولا يدعو الناس للاطمئنان بعد الآن، إن قيام العمال بالاتفاق السرى فيما بينهم على الإضراب ودن علم الحكومة وبوليسها العلنى والسرى وعيونها وأرصادها لأمر خطير.. فماذا يمنع أن يدبر العمال المكايد والمؤامرات ليضرموا فى البلاد نيران الثورات قبل أن تعلم الحكومة بأمرهم».

وهكذا تتيقظ الرجعية منذ الوهلة الأولى وتدرك خطر حركة العمال وتدرك مغزاها الطبقى، بل إن «الجريدة» تصف إضراب عمال السكة الحديد بأن فيه «شيء من روح الاشتراكية».

.. وثمة مقال آخر نشرته الجريدة بقلم يوسف البَستانى بعنوان «بين مصر وأوربا على ذكر الاعتصام الأخير»[٢٣] جاء فيه:

«إن التشبه بالمتطرفين الأوربيين فى مقاومة الحكومة وبال على العامل وعائلته».

ثم نشطت الحكومة لتسن سلسلة من التشريعات منها قانون التجمهر وقانون التشرد الذى يمكِّنها من فصل أى عامل، ثم تطبق عليه هذا القانون باعتباره عاطلا لا عمل له.

.. وبدأت السلطات فى اعتقال ونفى القادة النقابيين.. ومن بينهم أحمد لطفى عضو شرف نقابة عمال الترام، وأحمد رمضان زيان رئيس نقابة الصنائع اليدوية بالإسكندرية، ومحمد عوض جبريل سكرتير نفس النقابة.. وعشرات غيرهم.

لكن ذلك كله لم يكن قادرا أن يوقف الزحف المجيد للطبقة العاملة التى أكدت التجارب أنها أصلب الطبقات وأكثرها ثباتا فى مواجهة سلطات الاحتلال.

وهكذا تأتى ثورة ١٩١٩ لتجد جيش العمال مستعدا ومجهزا ليخوض غمارها، وإذا كان أبناء الفئات العليا هم الذين قاموا بالمواجهة الأولى من أجل السعى للاستقلال بالوسائل المشروعة فإن العمال قد انطلقوا بالثورة إلى أقصى مداها.. وتماما كما فعل الفلاحون امتزج صراعهم ضد الاحتلال بصراع طبقى واضح المعالم.

وقد بدأ الطلاب الحركة بمظاهرة صاخبة تصدى لها البوليس، وفى اليوم التالى دخل العمال المعركة.. دخلوها بعد أن ارتعدت قيادة الوفد من الانتفاضة الثورية، وبعد أن صاح عبد العزيز فهمى فى المتظاهرين «إنكم تلعبون بالنار.. دعونا نعمل فى هدوء ولا تزيدوا غضب الإنجليز» لكن العمال يلهبون الثورة ويثيرون إلى أقصى حد غضب الإنجليز..

وفى يوم ١٣ مارس ١٩١٩ بدأ عمال الترام وعمال المترو وعمال ترام هليوبوليس إضرابهم الكبير الذى شل حركة المواصلات تماما فى العاصمة والذى استمر حتى ٢

مايو.. ولقد ارتبط الإضراب بالأهداف العامة للثورة لكنه ارتبط فى نفس الوقت بمطالب اقتصادية تتضمن:

١- جعل الأجرة اليومية خمسة عشر قرشا.

٢- أن تقدم الشركة الملابس للعمال مجانا.

٣- أن تكون مدة العمل ثمانى ساعات يوميا.

٤- يمنح كل عامل راتب شهر سنويا.

٥- عدم اضطهاد العمال النقابيين.

- يوم عطلة كل أسبوع.

٧- منح علاوة غلاء معيشة ٣٠٪.

ومطالب أخرى عديدة..

وكانت أهم نتائج هذا الإضراب هى استجابة الشركات لبعض هذه المطالب، وتكوين نقابة عمال الترام.. التى جاء فى المادة الأولى لقانونها الأساسى أنها تأسست «للدفاع عن حقوق أعضائها وترقية حالتهم المادية والأدبية، وتقديم كل مساعدة ممكنة لهم بالطرق المشروعة»[٢٤].

وفى ١٥ مارس أعلن عمال عنابر السكة الحديد الإضراب وساروا فى مظاهرة صاخبة قوامها ٤٠٠٠ عامل، واستمر الإضراب حتى ٢مايو.

وفى ١٨ مارس انضم عمال المطبعة الأميرية إلى المضربين وسارت مظاهراتهم تهز شوارع العاصمة، واستمر الإضراب حتى شهر مايو أيضا..

وفى ٦ أبريل انضم عمال شركة الغاز إلى المضربين متقدمين أيضا بمطالب اقتصادية..

كذلك أضرب عمال الكنس والرش فى العاصمة.. وبعد أن استمر إضرابهم عدة أيام قاموا بإعلان مطالب اقتصادية، أعلنوا أنهم لن يعدلوا عن الإضراب دون تحقيقها.

كذلك أضرب عمال ورشة البوستة الخديوية وعمال ورش جبل الزيتون التابعة لمصلحة السكة الحديد وسائقو وعمال السكك الحديدية.. وبهذا شلت كافة مظاهر النشاط فى البلاد، وكانت التجربة الأولى لإضراب عام شامل يستمر اكثر من شهر ونصف يشل الحركة الاقتصادية تماما ويوقف كل مظاهر النشاط فى البلاد.

والظاهرة الأساسية التى تلفت النظر فى هذا الإضراب العام هى:

أولا: أنه وللمرة الأولى أدرك العمال أهمية اتحادهم على النطاق القومى كله، وأدركوا أن الإضراب ليس مجرد سلاح هين وإنما هو سلاح قادر على إرغام المستغلين على الخضوع.. كذلك فإن الإضراب قد زاد عن ثقة الطبقة العاملة فى نفسها، وقد زاد من ثقلها الاجتماعى تجاه الطبقات الأخرى، ولفت أنظار كثير من المثقفين الثوريين إلى أهمية الطبقة العاملة فى المعركة من أجل الاستقلال ومن أجل الديمقراطية.

ثانيا: أن العمال قد دخلوا المعركة دفاعا عن الحقوق الوطنية، لكنهم كانوا فى نفس الوقت يدركون الأبعاد الحقيقية للثورة الشعبية وأنها يجب أن ترتبط بتحقيق مطالب اقتصادية واجتماعية لهم ولجماهير الشعب.

ثالثا: أن الإضراب الشامل الناجح الذى استمر طوال هذا الوقت قد حقق وحدة عمالية قوية اكتسبت اتجاها يساريا، بحكم أنها قد أفلتت من الإطار الذى رسمته قيادة الوفد للانتفاضة، وبحكم أن المثقفين اليساريين كانوا على اتصال وثيق بهذه الحركة وكانوا أكثر المشجعين لها..

وهكذا، وعندما بدأ الاشتراكيون الدعوة لتأسيس اتحاد عام العمال تسارعت النقابات للانضمام إليه.. وأصبح اتحاد العمال هذا سبيلا لخلق رابطة قوية بين القوى الاشتراكية وبين الطبقة العاملة.

رابعا: أن هذه الحركة لم تكن تتم فى مواجهة المحتلين وحدهم وإنما فى وجه كبار الملاك الذين تصدوا للقيادة.. وبينما كان الإضراب الشامل يهز كيان الاحتلال، فإنه كان أيضا يهز - إلى حد ما- كيان الطبقات العليا فى المجتمع.. التى أصدرت عدة بيانات متخاذلة تحاول أن تسكب ماء باردا على الثورة الملتهبة.

وعندما وصل الجنرال اللنبى فى ٢٥ مارس ١٩١٩ معلنا أن واجبه الأساسى «أن يضع حدا ونهاية للإضرابات الحالية».. أصدر قادة الوفد المتبقون فى القاهرة بيانا ضعيفا يناشدون فيه الشعب «ألا يخرج أحد فى أعماله عن حدود القوانين، حتى لا يسد الطريق فى وجه الذين يخدمون الوطن. وعلى الجميع أن يقوموا بالواجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فيسارعوا إلى اتخاذ جميع ما لديهم من الوسائل لمنع وقوع كل ما ينجم عنه ضرر للبلاد»[٢٥].

وقد صدر هذا النداء يوم ٢٦ مارس.. وأفرج عن سعد ورفاقه يوم ٧ أبريل، ومع ذلك فإن الإضراب العام قد استمر حتى ٢ مايو. بل إن إضطرابات شديدة قد وقعت أيام ٨ و٩ و١٠ أبريل راح ضحيتها مئات القتلى والجرحى.

وإذا كان الإضراب العام قد توقف فى ٢ مايو، فإن هذا التوقف لم يكن غير هدنة لأمد قصير تسترد فيها الطبقة العاملة أنفاسها.. فما لبثت أن خاضت معارك إضرابية عديدة أخرى.

وفى آخر يونيو ١٩١٩ أضرب عمال الغاز، وفى ١٢ يوليو أضرب الحلاقون فى مدينة الإسكندرية مطالبين بزيادة الأجور بنسبة ٤٠٪، وفى ١٦ يوليو أضرب عمال شركة السكر وعمال تفتيش كوم أمبو، وفى ٢٨ يوليو أعلنت نقابة عمال القهاوى الإضراب، وفى ٤ أغسطس أضرب عمال الشحن والتفريغ فى ميناء الإسكندرية ثم أضرب عمال الترام فى ١٠ اغسطس. وتوالت الإضرابات لتصبح شيئا شبيها بالإضراب العام فإلى جانب كل هؤلاء المضربين أضرب عمال السجاير وعمال الترام فى الإسكندرية وعمال شركة «بونداستورز» وعمال مصنع السفن النيلية والتجارية وعمال شركة النور فى الإسكندرية[٢٦].

والحقيقة أن هذه الموجة الثانية كانت موجة طبقية، فقد امتحن العمال قواهم فى الجولة الأولى واكتسبوا مزيدا من الثقة فى أنفسهم.. ثم ها هم يشنون الآن معركة طبقية عنيفة تقوم أساسا على المطالبات الاقتصادية والاجتماعية.

وتنشر جريدة «الأهالى» رسالة لأحد القراء تقول «اشتدت الحرب القائمة بين العمال وأصحاب الأعمال طلبا لزيادة الأجور زيادة تتناسب مع ما وصلت إليه الحالة المعيشية من الشدة والضيق».

وفى نهاية الرسالة يقول كاتبها «وبعد.. فقد حدا بنا لكتابة هذه السطور ما نشاهد من أعمال أصحاب الأملاك والمتاجر وزيادة الأثمان زيادة مطردة وما نراه من إغفال أصحاب الأعمال أمر الصغار من موظفيهم إغفالا فاق حد النسيان..»[٢٧].

وثمة إحصاء يقول: إنه خلال الفترة من ديسمبر ١٩١٩ وحتى نهاية عام ١٩٢١ نظم العمال ٨١ إضرابا كبيرا شملت مختلف فروع الاقتصاد من بينها ٦٧ إضرابا شل كل منها فروعا متكاملة من أفرع الصناعة[٢٨].

وهكذا ارتفع صوت العمال عاليا بصورة تكفى لإيقاظ قطاعات كبيرة من المجتمع، وبصورة تطرح الصراع الطبقى واضحا وعنيدا وحاسما.

وكان لا بد لراية الصراع الطبقى هذه أن تؤثر فى الكثيرين وأن تدفعهم - فى وقت مبكر جدا- إلى أن يختاروا إلى أى المعسكرين ينحازون.

وكان طبيعيا بعد كل ذلك أن تنشط المساعى لتكوين حزب اشتراكى ليتوج هذا الصراع ويقوده.

الهوامش

(١) لمزيد من التفاصيل راجع:
* أمين عز الدين - تاريخ الطبقة العاملة منذ نشأتها حتى ١٩١٩.
* عبد المنعم الغزالى- تاريخ الحركة النقابية ١٨٩٩- ١٩٥٢.
* رؤوف عباس-الحركة العمالية فى مصر ١٨٩٩ - ١٩٥٢.

(٢) الغزالى- ص٢٤.

(٣) الأهرام - ١٩١٠/١/١٥.

(٤) الأهرام - ١٩٠٨/٨/١٩.

(٥) الأهرام - ١٩٠٧/٢/١٢

(٦) أمين عز الدين- المرجع السابق -ص٦٩.

(٧) الأهرام - ١٩٠٨/٨/٣.

(٨) الأهرام - اللواء - المؤيد ١٩٠٨/١٠/٤.

(٩) محمد سيد كيلانى. ترام القاهرة - دار الفرجانى- القاهرة - (د- ت) ص٦٤ - نقلا عن المؤيد ١٩٠١/١١/٢٦.

(١٠) اللواء ١٩٠١/١٢/٧ وأيضاً: ١٩٠١/١٢/٢٣.

(١١) محمد سيد كيلانى - المرجع السابق - ص٦٥ نقلا عن: اللواء ١٩٠٢/١/١٩.

(١٢) رؤوف عباس- المرجع السابق- ص٥٢.

(١٣) المقطم ١٩٠٨/١٠/١٨.

(١٤) اللواء ١٩١٠/١٠/٢٢.

(١٥) الجريدة ١٩١١/٨/٦- نقلا عن : د. سليمان محمد النخيلى- الحركة العمالية فى مصر وموقف الصحافة والسلطات المصرية منها من ١٨٨٢ إلى ١٩٥٢- ص١٦٦، ص٧٣.

(١٦) اللواء - ١٩١١/٨/٢.

(١٧) أمين عز الدين - المرجع السابق - ص١٠٦.

(١٨) اللواء - ١٩١١/٨/٥.

(١٩) أمين عز الدين - المرجع السابق - ص١٣٩.

(٢٠) الإقدام: ١٩٠٨/٣/٢٠.

(٢١) الأهرام - ١٩٠٩/٣/٢٧.

(٢٢) قسطاكى عطارة- تاريخ تكوين الصحف المصرية- ص٣١٢.

(٢٣) الجريدة- ١٩١٠/١٠/٢٣.

(٢٤) الغزالى- المرجع السابق- ص٦٥.

(٢٥) صبيح- المرجع السابق- ص٤٣١.

(٢٦) الغزالى- المرجع السابق- ص٧٥.

(٢٧) الأهالى - ١٩١٩/٨/١٣.

(٢٨) suliman bachear - communism in arab east - 1981- 1928, (london - 1980) p54.